مجلة جامعة تشرين – سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية

اسم المقال: الهوية الوطنية السورية رهانات المعنى وجدليات منطق مصالح الدولة والأمة والعالم
اسم الكاتب: د. حسام عيسى عبدالرحمن
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/5387
تاريخ الاسترداد: 2026/11/04 01:49 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة تشرين – سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية – ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

Syrian National Identity
The Stakes of the Essence and the Dialectic of Reason of State, Reason of Nation and Reason of World

Dr. Houssam Abdel Rahman*

(Received 24 / 11 / 2019. Accepted 6 / 2 / 2020)

□ ABSTRACT □

This research is based on the Constructivist approach, which sees that the identity is socially-constructed rather than being determined and primordial, the research aims to demystify the transformations of the identity in Syria between the being of the authority of what is conceived on one hand, and the process of rebuilding the reality on the other, the transition from an "*identity in itself*" which has a subjective existence found with the founding the state-entity, reaching an "*identity for itself*" which its individuals are aware being affiliated to it.

The awareness of this "*identity for itself*" is enhanced throughout two interlinked dynamisms, First: the *domestic policies* which participated in recognizing the *National Personality* through the crystallization of a mechanical social cluster in the sociological term of *overlapping consensus* over a national-political-economic community, and Second: the *realpolitik* based on the rational national interests, which by turn enhanced recognizing the difference with the friend and the enemy alike, and repositioned the conceivable authority about the national authority. These two dynamism coincided with the consolidation of the *Westphalian* system of nation-state in the Arab world.

This research concludes that sub-national identities and transnational identities (pan-Arab, Kurdish, Islamic, pan-Syrian /Bilad al-Sham) are essential components of the Syrian national identity and are part of it, not the other way around. We are facing an overlap similar to chemical reactions, so that once the elements meet until they lose their first properties and then turn into a new compound that contains the properties of the constituent elements but does not coincide with any of them, this compound is nothing but the Syrian national identity, which in the end is only a "social constructed" . Hence, the continuous intervention to give one characteristic its supremacy over other characteristics, generates a conflictual reaction and an imbalance between the elements.

Key words: Syrian Identity, Arab World, National Identity, Reason of State, State-building, Pan-Arabism, Politics of Notables.

***Doctorate - Political Science - France .Mob:00963934809263 - Tel: 0096311 2133575 - Fax:00963112119879 - Email : Houssam@Mail2syria.Com**

الهوية الوطنية السورية
رهانات المعنى وجدليات منطق مصالح الدولة والأمة والعالم

الدكتور حسام عيسى عبد الرحمن*

(تاريخ الإيداع 24 / 11 / 2019. قُبِل للنشر في 6 / 2 / 2020)

ملخّص

ينطلق هذا البحث من مدخل المقاربة البنائية التي ترى أن الهوية بناء اجتماعي وليست معطى جوهري ونهائي، ويهدف إلى إزالة الغموض عن تحولات أنماط الهوية في سورية بين صيرورة سلطة المتخيّل وسيرورة إعادة بناء الواقع من "هوية بذاتها" لها وجود موضوعي وجدت مع إنشاء كيان الدولة إلى "هوية لذاتها" يعي أفرادها الانتماء إليها، ترسّخ الوعي بها عبر ديناميتين متشابكتين، أولاً، السياسات المحلية التي ساهمت بإدراك الذات الوطنية من خلال تبلور تكتل ميكانيكي مجتمعي بالمعنى السوسيولوجي تكوكب حول تفاهمات تداخلية سياسية–اقتصادية وطنية؛ ثانياً، السياسات الخارجية الواقعية المرتكزة على منطق المصالح العقلانية الوطنية التي عززت بدورها إدراك الاختلاف مع الآخر سواء الصديق أو العدو وأعادت تموضع سلطة المخيال حول الهوية الوطنية. هاتان الديناميتان تزامنتا مع ترسخ نظام الدولة–الأمة الويستفالي في الوطن العربي.

يستخلص هذا البحث أن الهويات ما دون الوطنية والهويات العابرة للحدود (العربية، الكردية، الإسلامية، الشامية/بلاد الشام) هي مكونات أساسية للهوية الوطنية السورية وهي جزء منها وليس العكس. فنحن أمام تداخل أشبه بالتفاعلات الكيميائية، حيث ما أن تلتقي العناصر حتى تفقد خاصياتها الأولى ومن ثم تتحول لتشكل مركباً جديداً يحتوي خصائص العناصر المكونة ولكنه لا يتطابق مع أيٍّ منها، هذا المركب ليس إلا الهوية الوطنية السورية والتي ليست في نهاية المطاف إلا "بناء اجتماعي". ومن ثم فإن التدخل المستمر لإعادة إبراز خاصية وسيادتها على الخاصيات الأخرى، يولد تفاعلاً صراعياً واختلال في التوازن بين العناصر.

الكلمات المفتاحية: الهوية السورية، الهوية الوطنية، البنائية، العروبة والإسلام، القومية السورية، المتحد السياسي الوطني، الريف والمدينة.

* دكتوراه –علوم سياسية– فرنسا– موبايل 00963934809263– تلفون مكتب 2133575 0096311 – فاكس
Email : houssam@mail2syria.com–00963112119879

مقدمة:

تشبه معضلة الهوية السورية بيتاً من أربعة جدران (عربي، إسلامي، شامي[1]، سوري[2])، هذه الجدران ذات ماهيات مركبة مختلفة (قومية، دينية، إقليمية، وطنية) كلٌ منها بُني عبر "سيرورة تاريخية"(Smith, 1989: 344–355)[3]. في حقبة معينة، واحتوى كل منها على عناصر متعددة، فالعربي يحتوي أديان متعددة، والإسلامي يحتوي إثنيات مختلفة، والشامي والسوري يحتويان عناصر الأول والثاني. هذه الجدران تآكلت عبر الزمن كلٌ على حدة، وبشكل مختلف عن الآخر، بفعل التفاعلات التاريخية والتغيرات الجيو–سياسية، ومن ثم فإن محاولة التدخل المستمر لإلغاء أو هدم أي جدار يهدد البيت بالسقوط، هذا من الجانب الظاهري، أما من الجانب غير المرئي، حاولت الحكومات المتعاقبة منذ ولادة الكيان الدولتي وبنسب متفاوتة هدم الجدران الداخلية لهذا البيت لجعله "غرفه بلا جدران، وهي جدران أربعة أيضاً غير مرئية أو "زجاجية"، بأبعادها الإثنية والدينية–المذهبية والطبقية–المناطقية. لقد تغذى اعتلال الشخصية السورية التقليدي من هذه الجدران البلورية، ومن استسهال القوى العالمية والإقليمية المهيمنة سواء في الماضي أو فيالحاضر الرهان على حالة "التبلّر الطائفي والإثني" بهدف تحويل البيت السوري إلى "بيت بعدة منازل".

يرتد مصدر قلق الهوية في تاريخ سورية الحديث إلى ظهور ما يعرف بـ"المسألة الشرقية"(داغر، 1991) التي بدأت مع بداية تدخل الدول الأوروبية في النزاعات الداخلية في الإمبراطورية العثمانية، تحت شعار حماية الأقليات المسيحية، وأفضت إلى تفكيك واقتسام ممتلكات "الرجل المريض" العثماني في المشرق العربي، وتوّجت بمعاهدة سيفر *Treaty of Sèvres* في (1920/8/10) التي أعادت توزيع حدود الدول وأدوارها، فقسمت بلاد الشام إلى أربع دول وفق مفهوم السيادة الويستفالي الأوروبي المتجسّد بنظام الدولة–الأمة المؤسَس على الرابطة القومية كـ"عاقد اجتماعي" عُدَّ لاحماً جديداً بالنسبة للدول العربية التقليدية في المنطقة عوضاً عن الرابطة الدينية كعاقد اجتماعي. ، وضِعَت سورية التي تحولت إلى مملكة في ذات العام (1920/3/8) تحت سلطة الانتداب وفقاً لمقررات مؤتمر سان ريمو (1920/4/25) الذي أحبط آمال الذات السورية وتطلعاتها نحو قيام دولة مستقلة، وأضحى مصدر ارتيابها بالحضور الخارجي الكثيف في القضايا السورية وانكشافها تجاهه.

الإطار النظري للبحث: يتموضع هذا البحث عن نقطة التقاء مجالين فرعيين في العلوم السياسية هما السياسات المقارنة والعلاقات الدولية من خلال مناقشة ديناميتين متشابكتين ساهمتا في بناء الهوية الوطنية، أولاً، السياسات المحلية التي ساهمت بإدراك الشخصية الوطنية عبر تبلور تكتل ميكانيكي مجتمعي بالمعنى الماكس فيبري Max Weber تكوكب حول تفاهمات تداخلية سياسية–اقتصادية وطنية؛ ثانياً، السياسات الخارجية الواقعية المرتكزة على منطق المصالح العقلانية الوطنية *Raison d'état* التي عززت بدورها إدراك الاختلاف مع الآخر سواء الصديق أو العدو وأعادت تموضع سلطة المخيال الشعبي حول الهوية الوطنية. يتمحور البحث وعبر الديناميكيتين المذكورتين حول العلاقة التبادلية بين المصلحة والهوية بصفة عامة وبصفة خاصة يجادل حول أولوية منطق المصالح العليا للدولة في ترسيخ الهوية الوطنية بالرغم من التنافس المتزامن مع الخطاب السياسي العابر للحدود الوطنية باستطالاته المعولمة أو الإقليمية.

---

[1] نقصد بمصطلح الهوية الشامية هنا كتعبير عن الهوية القومية السورية لبلاد الشام عامة بوصفها هوية ما قبل عربية وما قبل إسلامية.

[2] يُقصد به "الوطنية الجمهورية" المرتبطة بنشوء الدولة السورية.

[3] يرى أنتوني سميث أن الهوية الوطنية تنشأ وتتطور عبر عملية تاريخية *Historical Process* من خلال جماعة بشرية "إثنية" تتناقل القيم والذاكرة الجماعية للأحداث التاريخية والأساطير الثقافية والرموز من جيل إلى جيل في منطقةٌ تدرك بأنها الأرض التاريخية أو الوطن.

على ضوء ما سبق، تدور **الفرضية الرئيسة** للبحث حول كيفية تطور وانبثاق الهوية بحسبانها أنها تُبنى اجتماعياً *socially constructed* ولذلك يتبنى البحث المقترب البنائي *Constructivist Approach* [4] لأنه من **ناحية أولى**، تُعد الهوية بناء اجتماعي وليست معطى جوهري/أصلي نهائي كما تفترض المقتربات الجوهرانية *Primordial Approaches*، ومن **ناحية ثانية**، لا تُعد بحالة سيولة يمكن التلاعب بها من قبل النخبة السياسية كما تفترض المقتربات الأداتية *Instrumental Approaches*. ويعود السبب في ذلك أن الهوية وإن كانت تتميّز بالثبات النسبي إلا أنها عرضة للتغيير وإعادة التشكل على نحو مستمر لأنها تحمل في طياتها عناصر أساسية تمنحها تعييناتها الانطولوجية الملموسة التي تحولها من مجرد أفكار إلى مفهوم واقعي بحيث يلعب تغيّر الأفكار والإدراكات دوراً جوهرياً في إعادة صياغة الهوية باعتبارها كائن حي سوسيو–ثقافي يتفاعل بشكل نشط مع البيئة المحيطة. فحسب المقترب البنائي، تشكل التفاهمات التذاتانية[5] *Inter–subjectivity arrangements* في المجتمع هوية الدولة، وتصوغ مصالحها. تتفاعل الهويات الذاتية للأفراد *subjectivity* أو الذاتيات المتعددة عند الفرد *subjectivities* أي الهويات المتعددة للفرد مع الأفراد الآخرين ضمن الجماعة، فالفرد قد يكون دمشقياً سورياً(عربياً أو كرديا) (مسلماً أو مسيحياً)... في النهاية هذا التفاعل يؤدي إلى توازن الهويات بين الأفراد للتفاهم على إعطاء الأولوية للهوية الجامعة التي ينتمي لها الجميع وتمثل مصالح الجميع. وتبرز المعضلة عندما تتبنى السلطة هوية لا تمثل جميع مواطنيها وتعمل على تنميتها على حساب الهوية الجامعة.

ما تقدم يدعو إلى مقاربة الهوية من زاوية البراديغم البنائي كنموذج معرفي ما بعد حداثي (Marie–josé, 2011)، ومدخلاً للتأصيل المفهومي للهوية *Conceptualisation of identity* (Katzenstein, 1996). وبناء على ذلك سيعتمد هذا البحث على الشرح أكثر منه التفسير، وسيرتكز على النظريات التكوينية، حيث نستعير بهذا السياق، الابستمولوجيا الوضعية بعقلانيتها *Rationalist* وانطولوجية ما بعد الوضعية وما بعد الحداثة *Post–Modernism* بتأمليتها *Reflexivity*، الأمر الذي يعطى الأولوية للعوامل الفكرية والإدراكية في صياغة الهوية والمصالح الوطنية والتحول المجتمعي وإدراك الآخر. وبهذا تختلف البنائية عن النظريات الكلاسيكية على المستوى الابستمولوجي بأنها لا تعترف بوجود حقيقة مستقلة، فكل المعارف مخلوقة، وهذا يطرح العلاقة الموضوعية بالمعرفة، فما هو صحيح بالنسبة لباحث ليس بالضرورة صحيح بالنسبة لآخر. وعلى المستوى الانطولوجي إنها لا تعترف بوجود واقع حقيقي ثابت كمعطى نهائي ولكن الواقع يُبنى اجتماعياً ولا يمكن وجوده خارج سياقه الخاص. وكما كانت نظرية ما بعد الحداثة في الأدب رؤية جديدة للعالم، يهدف هذا البحث إلى تكوين رؤية جديدة لسورية عبر منظور ما بعد الحداثة، وخاصة أن أدباء ما بعد الحداثة كانوا خبراء في الهدم ولكنهم كانوا مذهلين في بناء النموذج الجديد. يسعى هذا البحث في نهاية المطاف للتموضع في سياق الحوار النظري ما بين النماذج المعرفية *Inter–paradigms* السائد حالياً في العلوم الاجتماعية بمستوييه الابستمولوجي المعرفي والانطولوجي التكويني.

---

[4] هذا المقترب يشكل منطقة وسطى بين المقتربات الأداتية الذرائعية والمقتربات الأصلية نلاحظه في أعمال العديد من الباحثين مثل:
Ted Gurr, Donald Horowitz, David Laitin, & Joseph Rothschild

[5] يُعرّف Thomas Scheff "intersubjectivity" بأنه "مشاركة الحالات الشخصية من قبل شخصين أو أكثر .
فهي عملية انتاج ومشاركة الخبرات والمعرفة والتوقعات مع الآخرين وهي سمة رئيسية للبناء الاجتماعي. .كما استخدمت "Intersubjectivity"للإشارة إلى المعاني المشتركة التي أنشأها الناس في تفاعلاتهم مع بعضهم البعض واستخدمت كمورد يومي لتفسير معنى عناصر الحياة الاجتماعية والثقافية. إذا كان الناس يتشاركون الفطرة السليمة، فإنهم يتشاركون في تعريف الموقف ذاته.

وسنحلل بناء على كل ما تقدم الإشكاليات التي تلامس صراع الهويات المخفي والسافر في سورية، من خلال ثلاثة محاور. أولاً من خلال استعراض تحولات الدولة والبناء الهوياتي ودور سيادة منطق ويستفاليا. وثانياً: من خلال إبراز الأبعاد القومية للهوية الوطنية السورية وكونها جزءاً منها ولا تتطابق معها وهذا يتجلى من خلال عدم تطابق المصالح القومية والقومية بالرغم من تقاطعهما. ومن ثم نستعرض الديناميكيات المؤسِسة للهوية الوطنية في محاولة لكشف المعنى الحقيقي الأصدق تعبيراً عن الاجتماع السياسي السوري بعيداً عن إرادات الهيمنة التعتيمية والإيديولوجيات الخلاصية. بهدف إزالة الغموض وتفكيك حكاية الهوية الوطنية انطلاقاً من التساؤل الرئيسي: أي من الهويات المتصارعة في الفضاء السوري هي الحقيقة؟ وأي منها هو الخيال؟ أي منها العابر؟ وأي منها الدائم والأبدي؟

المطلب الأول: الدولة والبناء الهوياتي وتناقض المتخيّل والواقع: سيادة منطق مصالح العالم *Raison du Monde*

يتدخل ويتداخل التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي لسورية في صياغة ملامح هويتها المعاصرة بحسبانه حصيلة مزيج حضاري لكل الحضارات القديمة والحديثة التي تعاقبت على الأرض السورية. إلا إن تحولات الهوية في سورية خضعت إلى مفاعيل التحولات الجيواستراتيجي الويستفالية التي أسست لزمن الدول القومية وتبدت في الوطن العربي مع انهيار الدولة العثمانية من خلال ظهور نظام الدولة الأمة وشكلت خطوة مهمة على طريق الحداثة السياسية.

بالرغم من تقدم عملية الاندماج والتجانس الوطني منذ نشوء الدولة الوطنية وخلال عقود ما بعد الاستقلال، كانت قدرة الجهاز الثقافي للدولة على توفير الشعور بالانتماء إلى الجماعة الوطنية في الدولة متعثّرة، بحيث لم تنجز عملية "التفكك المفاهيمي" (Geertz, 1973) حسب ما يسميه غيرتز Clifford Geertz للمفاهيم الموروثة مثل مفاهيم الأمة والهوية والجماعة والطائفة والقبيلة والنفوذ والعدل...أي عملية مراجعة الأطر المألوفة من أجل إعادة صياغة مسألة الانتماء للجماعة التي كانت قبل خلق الدولة الوطنية محسومة بالانتماء للأمة العربية أو الأمة الإسلامية أو الانتماء للمجموعات المحلية الإثنية أو الدينية. حيث يستلزم ذلك إعادة بناء العلاقة بين المجتمع والسلطة من جهة، وبين المجتمع والدولة من جهة أخرى أي جَسْر العلاقة بين الطوائف والإثنيات من جانب وجَسْر العلاقة بينها وبين الدولة من جانب آخر، لتكون الدولة الوطنية محور الولاء الأساسي لأن الدولة تمثّل المجال الحيوي لتغذية المواطنة بالمعنى الحديث للكلمة، والمناخ الملائم لمأسسة الحياة السياسية (عبدالرحمن، 2018a). حيث يتفق علماء السياسة والاجتماع أن المجتمعات الحديثة لا تنشأ إلا في كنف الدول، ولا سبيل للجماعات الأهلية من أجل التقدم والإنتاج وملامسة الحداثة السياسية إلا بتحولها لجماعات سياسية تنشأ الدولة بتآلفها واجتماعها في بوتقة واحدة (بلقزيز، 2008).

أولاً: اللحظة التكوينية لهوية سورية العربية

شهدت الهوية في سورية تطوراً جوهرياً بعد دخول الجيوش العربية الإسلامية في عام 635 م (جورج انطونيوس، 1962). فغدا ارتباط المجتمع السوري بعنصري الدين الإسلامي واللغة العربية موقعاً هاماً في تكوين هوية المجتمع السوري الحديث ووجدانه وثقافته العامة وقيمه الكلية. لا شك أن خضوع سورية للدولة الإسلامية ومن ثم قيام إمبراطورية إسلامية عاصمتها دمشق أدى إلى أسلمة هويتها التاريخية المتوسطية والتي كانت تدين بالمسيحية آنذاك وكرّس أولوية الهوية الإسلامية في هذه البلاد وإن كانت بسيميائية[6] عربية. وشكل ذلك نقطة البدء في نهاية لهيمنة الثقافة الهلينية

[6] **السيميائية: دراسة "حياة العلامات داخل المجتمع". وهي أي شكل من أشكال النشاط أو السلوك أو أي عملية تنطوي على علامات، بما في ذلك إنتاج المعنى .الإشارة هي أي شيء يوصل معنى، وليس العلامة نفسها، .يمكن أن يكون المعنى مقصودًا مثل كلمة يتم نطقها**

وانحسار دور المسيحيين الشرقيين السياسي مقابل تأسيس مرحلة حضارية وثقافية وسياسية مختلفة عن سابقتها إلا أنها ليست منبتة الصلة بها لأسباب عديدة. حيث كان العقل السوري مرتبطاً بالغرب أكثر من ارتباطه بالشرق، فهو عقل متوسطي تأثر بشعوب بلدان البحر المتوسط وتبادل الثقافة والسياسة والاقتصاد والفن معها عبر العصور. فالتاريخ يخبرنا أن خمسة قياصرة من أبناء سورية حكموا روما، وثمانية سوريين جلسوا على كرسي البابا في الفاتيكان، وثلاثة من بطاركة الكنيسة الشرقية اتخذوا من دمشق مقاماً لهم. فالشخصية السورية اختزنت كالشعوب المتوسطية حضارة اليونان والرومان بالإضافة لما تختزنه من حضاراتها القديمة الكنعانية والفينيقية قبل أن تنهل من الحضارة العربية– الإسلامية. وإذا كانت الدولة الأموية امتدت من أسوار الصين إلى المحيط الأطلسي فإن سفن الفينيقيين وصلت إلى شواطئ انكلترة قبل الميلاد بعدة قرون. ومن ثم لا يمكن اختزال العلاقة السورية مع أوروبا بحروب صلاح الدين مع الصليبيين.

ويمكن القول على ضوء ما سبق أنه لا يمكن اختزال هوية سورية وتاريخها فقط بتاريخ الفينيقيين أو تاريخها المسيحي أو بتاريخ الدولة الاسلامية الأموية... ففي سورية قبل الإسلام اخترعت اول أبجدية في العالم، وجمع أول إبداع موسيقي في التاريخ واخترعت أول أداة موسيقية، وحصلت أول ثورة زراعية في العالم، زراعة القمح، وأخيراً أنشئت أول مكتبة و معها أول أرشيف في العالم.غير أن التحول الذي أحدثه الإسلام في سورية ترافق مع تكريس الإسلام قطيعة جذرية مع كل الثقافات والحضارات السابقة للإسلام: العمورية، الكنعانية والفينيقية، الآرامية، الآشورية... واعتبار التاريخ الحضاري لما قبل الإسلام يمثّل "عصر الجاهلية"[7]، الأمر الذي أفقر فيما بعد الرؤية الإسلامية والشخصية العربية الإسلامية بعدم استيعاب هذا الغنى والتنوع الحضاري، خاصة أنه في مدارك الفكر الإسلامي تتموقع الهوية الإسلامية كهوية متفوقة على غيرها من الهويات. بالرغم من أنه كما يقول طه حسين:

"إن الحضارة الإسلامية لم يأت بها المسلمون من بلاد العرب وإنما أتو ببعضها من هذه البلاد، وببعضها الآخر من مجوس الفرس، وببعضها الآخر من نصارى الروم"(حسين، 1996: 45).

في النهاية، إن عمر سورية الحضاري الذي يمتد لأكثر من خمسة آلاف عام لا يمكن اختزاله بالحقبة الإسلامية فقط، ولا يمكن اختزالها بنظام سياسي أو حاكم معين ولو كان امبراطوراً. هذا التاريخ الحضاري ولازال له ثقله في الوجود السياسي والاجتماعي في سورية وسيبقى المفتاح في تحليل تطورها السوسيولوجي اللاحق.

ثانياً: الهوية "السورية القومية" والعروبة

يرى المستشرق الفرنسي هنري لامانس*Henri Lammens* في كتابه "سوريا: موجز تاريخي"، أن سوريا كانت دائماً وحدة جغرافية معرّفة بحدود طبيعية، تشكلت داخلها الأمة السورية التي لم تكن آنذاك لا عربية ولا مسلمة. فهي بوتقة لجميع الحضارات القديمة التي وجدت على الجغرافية السورية عبر التاريخ (Lammens,1921).

نشأ هذا المفهوم للهوية السورية "السورنة *la Syrienité | Syrianness*" مع دلالاته السياسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد كان بطرس البستاني (1819–1883) من أوائل السوريين الذين طوروا ونشروا فكرة وطن

بمعنى محدد أو غير مقصود، مثل أن تكون الأعراض علامة على حالة طبية معينة. يمكن للعلامات التواصل من خلال أي من الحواس البصرية أو السمعية أو اللمسية أو الشمية أو الذائبة.

[7] تُطلق هذه التسمية المستحدثة على الفترة ما قبل الإسلام وإن كان البعض يحددها بالفترة بين نوح وآدم أو بين نوح وإدريس....كلمة الجاهلية تشير إلى مضمون أخلاقي سلوكي وليس المعنى المضاد للمعرفة حسب ما جاء في الآية القرآنية "إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية" (سورة الفتح26). بذات المحتوى يورد ذكر الجاهلية في القرآن للحديث عن تبرّج المرأة في تلك الفترة، تقول الآية القرآنية: "وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى". بشكل عام تركز النظرة الإسلامية على اعتبار عصر الجاهلية فترة عبادة الأوثان والكفر المطلق، أما الشعراء الجاهليون كانوا يريدون بالجهل التوحش وليس عدم المعرفة.

سوري[8] مُحدد تاريخياً، يتمايز بثقافة عربية، ويحمل ملامح قومية سورية مع تبني سمات غربية ضرورية لاستمراره حياً. بعد الحرب الأهلية في المشرق العربي عام 1860، تنبهت أذهان الناس إلى أن محنة البلاد تعود بجذورها إلى العداوات الطائفية[9]. نظّر البستاني لمفهوم الوطن من خلال كتاباته في صحف "تفير سورية" و"الجنان" وذلك بهدف استبدال الطائفية بالقومية. وطوّر أيضاً موضوع التوافق والمواءمة بين العثمانية والوطنية السورية والعروبة. فدعا لقيام فيدرالية عثمانية تضم أوطان مختلفة. لقد كانت أفكاره آنذاك تنسجم مع سياق التنظيمات التي استهدفت استبدال البنية العثمانية– الإسلامية بوطنية عثمانية جديدة ضمن إطار غير ديني (Ma'oz, 1997: 210).

ظهر مفكرون آخرون بالإضافة إلى بطرس البستاني أرادوا تأسيس العروبة بالارتكاز على الماضي العريق والتاريخ الحضاري للعرب الذي يشهد على قدرتهم الخلاقة ودورهم الذي ينبغي أن يستعيدوه بين الأمم بما يتلاءم مع ماضيهم المشرق. بين هؤلاء المفكرين إبراهيم اليازجي، وأديب اسحاق، وفارس الشدياق... وفي بدايات القرن العشرين يمكن ذكر رفيق العظم، نجيب عازوري، قسطنطين زريق وساطع الحصري. حاول هؤلاء تطوير ونشر فكرة مجتمع عربي فوق طائفي لصالح فكرة الوعي القومي. من أبرز هؤلاء ساطع الحصري الذي كرّس حياته لفكرة "دين العروبة"، التي ترتكز على عنصر اللغة (ساطع الحصري، 1984: 14). ومن بين هؤلاء أيضاً رفاعة الطهطاوي، محمد عبده ورشيد رضا الذين وجدوا بالعودة إلى الإسلام الأولي إحياءً للعروبة وبالعكس إن الإحياء العربي هو الطريق إلى بعث الإسلام (Khalidi, Anderson, Muslih & Simon, 1991).

انبثقت العروبة التحديثية من لدن العثمانوية التحديثية وهما ردة فعل على فشل الحضارة العثمانية على مواكبة مسيرة التقدم الأوروبي. وبالتالي تعود جذور الإيديولوجيتين إلى التحديث الإسلامي وكلتا النظريتين كانتا تهتمان بدفع تهمة الدونية الشرقية عن مثيلتها الغربية. وحسب المؤرخ فيليب خوري:

"حتى العام 1914 لم تكن أهداف العروبة تختلف جذرياً عن تلك "العثمانوية". لكن أكثر المنتمين إلى العروبة، شكلوا أقلية سياسية في الولايات العربية، لم تسع إلى انفصال الأقاليم العربية عن الامبراطورية ولا إلى إيجاد أمة عربية متمايزة ولها حدود محددة، بل كانت مطالبهم تعكس بدقة أكبر مصالح عدد متزايد من أعضاء ناشطين سياسياً من طبقة ملاك بيروقراطيين مدينية غائبة عن أملاكها فشلت في التوصل إلى سلطة ونفوذ تتناسبان مع توقعاتها. وكانت هذه التوقعات لا تزال تقع ضمن نطاق الامبراطورية" (فيليب خوري، 1993: 111).

ويلاحظ أن مصطلحي عربي وسوري كانا مترادفين ويدلان على نفس المعنى بالنسبة للمواطن الذي يعيش في سورية الطبيعية أيام البستاني. ولم يتلاشى الالتباس والغموض بينهما لدى المواطن السوري في المشرق العربي إلا في لحظة تبني مصر للفكرة العربية في بداية الخمسينات (Pipes, 1992: 45–47)، مع أن الافتراق بينهما بدأ منذ إن تحولا إلى إيديولوجيتين عبر الحزب السوري القومي الاجتماعي وحزب البعث[10]. وإن اتفقا معرفياً من حيث النهج العلماني إلا إنهما تتعارضان من حيث المحتوى والأساس الذي يرتكز عليه فهمهما للقومية. وفي نهاية المطاف، انتهى التضاد

---

[8] فكرة الوطن بدلالاتها السياسية طوّرت بشكل عام من قبل جيل مفكري النهضة مثل الطهطاوي، والأفغاني، ومحمد عبده... انظر: عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، ط4، 2003، ص 143–145.

[9] في ربيع 1860 قام البعض من أبناء طائفة الدروز بمذبحة ضد أبناء لبنان الجنوبي من النصارى، وامتدت البغضاء إلى أنحاء أخرى في البلاد، فتجمع المسلمون في دمشق في تموز، وفتكوا بحي النصارى وكانت الخسائر في الأرواح في جبل لبنان ودمشق مروعة حيث بلغت أحدى عشر ألف قتيل. بالإضافة للدمار والخراب في الممتلكات. جورج انطونيوس: يقظة العرب : تاريخ حركة العرب القومية، مرجع سابق، ص 124–125.

[10] "حزب البعث" اختصاراً لحزب البعث العربي الاشتراكي.

والتنافس بين القوميين العرب والقوميين السوريين لصالح اتساع المد القومي الناصري والبعثي العسكري حيث استلم السلطة في مصر وسورية وبلدان عربية أخرى، والذي أصبح المحدد الأساسي لهويات هذه الدول السياسية، والمحدد لعملية التنمية والتطوير والتحديث في النصف الثاني من القرن العشرين.

ثالثاً: اللحظة التأسيسية للدولة الوطنية وجدلية المادي والمعياري: عولمة منطق مصالح العالم

يعد نشوء نظام الدولة–الأمة كجزء من عملية شاملة عالمية لتوسع المجتمع الدولي (Bull & Watson, 1984) تعود جذورها إلى معاهدة سلام ويستفاليا *The Peace of Westphalia* عام 1648م التي وضعت نظام ما بين الدول بما فيها السيادة المطلقة للدولة الوطنية وما يصاحبها من حق أساسي لتقرير المصير السياسي بالإضافة إلى المساواة بين الدول في السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول. وفوق ذلك كله، فإن ويستفاليا كرست فكرة أنه في الإمكان صياغة نظام إقليمي جديد من خلال انخراط أطرافه في مفاوضات تُعالج المعضلات الأمنية، وتُلبي تطلعاتهم القومية ومصالحهم. وكانت هذه المعاهدة حجر الزاوية في ولادة نظام دولي جديد آنذاك (Holsti, 1992; Lawson, 2006). لقد أنهت معاهدة ويستفاليا سيطرة الدين على العقل في أوروبا، وأسست لقيام الدولة القومية فيها ككيان يجتمع فيه المواطنون بصفتهم شعبا وليس جماعات دينية أو إثنية حيث أضحى مفهوم المواطنة هو اللاحم المؤسس الذي يربط الجميع في داخل الدولة ويكفل لهم المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات أمام الدستور، بعيداً عن أي تمييز. انعكست صورة التشكيل الحديث لمكونات أوروبا السياسية على التأسيس الوطني لدول العالم في القرن العشرين. لقد تم نقل مفهوم السيادة الويستفالي الغربي المتجسّد بالدولة–الأمة إلى المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى مع تفكيك الدولة العثمانية حيث تجسد " نظام الدولة–الأمة" عربياً في "قالب الدولة–الوطنية/القطرية" في حين لم تنتقل روح معاهدة ويستفاليا التي كرست الانتماء للأرض وليس للجماعات. لقد تجسد نظام الدولة–الأمة عربياً كهيكل مستورد من أوروبا ولكن ظل المضمون محلياً لجهة طبيعة السلطة الخلدونية– البطركية السلطانية الموروثة[11] (عبد الرحمن، 2019).

فضلاً من ذلك، خلقت تجزئة المشرق العربي وفق اتفاقيات "سايكس بيكو" تناقضاً بين المادي والمعياري؛ بين البنية والهوية بسبب عدم انطباق الحدود الجغرافية المصطنعة مع الهوية الديمغرافية والتاريخية في المنطقة بصفة عامة والمشرق بصفة خاصة. من هنا برزت إشكالية البنية–الفاعل *structure–agency* في الدول الراهنة. أي عدم تطابق الجغرافية المفروضة إمبريالياً مع الفواعل/الجماعات بهوياتهم المختلفة وأيديولوجياتهم المتعددة.

مع هذه اللحظة التاريخية نشأ ما عرف بظاهرة "الصراع في سورية وعليها" كنتيجة لعدم التطابق بين المادي *material* *والمعياري normative*، أو بصيغة أخرى بين البنية *structure* والهوية *identity*، أي بين الحدود المصطنعة والهوية الوطنية، حيث فرضت القوى الكبرى الحدود في المشرق العربي وفق مصالحها وليس بما يستجيب لهوية أهل المنطقة وتنوعهم الإثني والديني. لذلك برزت معضلة عدم التطابق بين الأراضي التاريخية والذاكرة التاريخية لأهالي المنطقة وفاقم هذه المعضلة عدم تطابق الفضاء الجغرافي الوطني للدولة وسردية الحكومة الرسمية للفضاء الوطني. وفي حين اقتطع الصهاينة اليهود دولتهم بمساعدة الدول الامبريالية الكبرى، لم يحصل العرب على دولتهم الموعودة، ولم يحصل الأكراد على حق تقرير المصير كما جاء في معاهدة سيفر وتوزعوا في عدة دول في إطار الحدود الجديدة.

[11] القراءة لفكرة السلطة الخلدونية ضمن إطار مفهوم الدولة–الأمة، أن السلطة (المُلك) لم تؤسس على المدينة كما هو الحال في التقاليد الإغريقية، وإنما على أساس التكتل العصبوي: تعني العصبية في المعنى الخلدوني، العلاقات الوجدانية، علاقات الدم (صلة الرحم)، القبلية والعائلية، علاقات المصاهرة، علاقات الجوار، وعلاقات التعبئة والتحشيد في الجيش. أما «السلطانية المحدثة» تعبير عن تقليد مملوكي – عثماني راسخ في المجتمعات العربية، أدت إلى إحكام الهيمنة على «المجتمع» في جميع المجالات السياسية والوطنية والأخلاقية والإنسانية.

المطلب الثاني: الأبعاد القومية للهوية الوطنية في الخطاب السياسي: منطق المصالح العليا للأمة Raison de la Nation

تطرح الأبعاد القومية للهوية السورية جدلية العلاقة بين الوطني والقومي وبتعبير آخر ثنائية الوحدة والتجزئة. ففي حين يرى مفكرون عرب أن الدولة الوطنية/القطرية رسخت التجزئة وحققت حلم الاستعمار (ضاهر، 2001). رأى آخرون أنها لعبت دوراً توحيدياً للمجتمع وخاصة في إقليم بلاد الشام والعراق (الأنصاري، 1995). في الواقع، البنية الفسيفسائية/التعددية للتركيبة المجتمعية لإقليم الشام كانت موجودة قبل الاستعمار وانعكست بنى تعددية سلطوية مختلفة المستويات أفقياً بالمعنى السوسيولوجي بين الريف والمدينة والبادية وشاقولياً بالمعنى المورفولوجي داخل هذه المجتمعات الثلاثة (أثنياً وطائفياً وعشائرياً) وجغرافياً بين السهل والجبل والصحراء، فالبنية التعددية كانت مترسخة في التركيبة المجتمعية لذلك حسب محمد جابر الأنصاري:

" [إن هذه التعددية] لا توحي إن إقليم الشام كان يعيش فعلاً وحدة مجتمعية متجانسة بالمعنى العضوي، قبل تجزئته من قبل الاستعمار الأمر الذي يدفع إلى الافتراض أن هذه التجزئة كان يمكن أن تحدث، ولو بشكل آخر، في ظل ظروف أخرى لا دخل للاستعمار فيها" (الأنصاري، 1995: 117).

تعود جذور هذه التعددية إلى كون سورية الطبيعية بوتقة انصهار للحضارات والأقوام والأديان عبر العصور المختلفة. ويمكن ملاحظة أن هذه التعددية المجتمعية ستنعكس على صعيد التيارات الفكرية والسياسية في مرحلة ما بعد خروج الاستعمار.

أولاً: تعدد خطابات الهوية في حقبة ما بعد الاستعمار

شكل المشهد الفسيفسائي للبرلمان السوري بعيد فجر الاستقلال التعبير الأصدق للاجتماع السياسي السورية كما يصفه حبيب كحالة في مذكراته "مذكرات نائب" عام 1947 قائلاً (Seale, 1987: 32):

"نظرت حولي، وكان ما رأيته فقط رجالاً مختلفون، ولا يشتركون في أية مبادئ، ولا يربطهم تنظيم حزبي. وقد وصلوا إلى البرلمان بأساليب خادعة مقنّعة من انتخابات فوضوية تحت ستار الحرية، فكان بعضهم أميّاً وآخرون أدباء مرموقون، وكانت لغة بعضهم الكردية أو الأرمنية، ولم يعرف آخرون سوى اللغة التركية فقط. إلا أن بعضهم ارتدى الطربوش وآخرون اعتمروا الكوفية، وكان بينهم رجال من البادية أو المدينة، ولم يزد الأمر عن مسرحية وتمثيل أدوار"

لاشك أن هذه التعددية الهوياتية تحولت معضلة بعد الاستقلال نتيجة نقص شرعية الكيان الوليد من منظور القوميين العرب والإسلاميين والقوميين السوريين على حد سواء، كل هؤلاء نظروا للكيان الجديد على أنه "دولة بلا أمة". فهو بالنسبة للعروبيين "كيان مصطنع" يمثّل جزءاً من الأمة العربية، وبالنسبة للإسلاميين جزء من الأمة الإسلامية، وبالنسبة للسوريين جزء من سورية الطبيعية/الأمة السورية. يُضاف إلى ذلك، نقص شرعية الحكومات المتعاقبة وعدم قدرتها على إنجاز المواطنة الكاملة اللازمة لترسيخ الهوية الوطنية السورية. في هذا السياق فتح الاستعمار صندوق "باندورا" المليء بشرور الطائفية لتطبيق سياساته "فرق تسد" حيث غدت الطائفية "كعب أخيل" المشرق العربي (Hinnebusch, 2019).

انطلاقاً من هذه الإشكالية، احتوى الفضاء السياسي السوري – وبشكل مكثف بعد الاستقلال– ثلاثة خطابات، عبّرت عن ثلاثة مرجعيات متنافسة ومتصارعة[12]، ومثّلت بؤرة "صراع الهويات في سورية" بأطوارها الصامتة/المخفية والسافرة/العلنية، وعكست الصراعات العربية والإقليمية والعالمية، وشكلت صدىً للعبة الصيرورة الكبرى في العالم. امتلكت كلٌ من هذه المرجعيات تصوراً محدداً عن هوية قومية عابرة للحدود *Imagined* متخيّلة (Anderson, 200)

[12] (حزب البعث أو التيار القومي العربي بصفة عامة هذا من جهة، ومن جهة ثانية، جماعة الإخوان المسلمين والتيار الإسلامي بشكل عام، وثالثاً الحزب القومي السورين بالإضافة إلى الأردن والعراق عمل الأول من أجل سورية الطبيعية والثاني من أجل وحدة الهلال الخصيب).

" أو *Invented* مُختَرَعة" (Hobsbawm & Ranger, 1983): عربية وإسلامية وشامية؛ حيث راهن كلاً منها على امتلاكه "المعنى الحقيقي" للهوية السورية واستهدف نشر "معناه" بإرادة جازمة ليشمل ويهيمن على الجميع، مفترضاً أن اليوتوبيا التي يطرحها ستملأ فراغ الهوية في الكيان السوري الوليد في عملية هروب إلى الأمام أو لتغطية فشل الاستجابة الواقعية لاستحقاقات اكتساب حكومات ما بعد الاستقلال للشرعية. فالمعنى "الحقيقي" للهوية في النهاية ليس شيء يتم "التوصل" إليه عبر النقاشات الشعبية وإنما هي شيء يتم "إنتاجه" عبر الخطاب السياسي حسب منطق ميشيل فوكو *Michel Foucault* حيث يرى أن الخطاب هو نظام رمزي وتأسيسي في آن واحد، فهو يبني المعرفة والممارسة الاجتماعية معاً. ولكي يطغى خطاب معين على خطابات أخرى فهو يحتاج لأن يُسن على أنه "الحقيقة"، وهذا ليس لنقاش الحالة بالنسبة لحقيقة أساسية عقلانية "منطقية" من النوع الذي حاول يورغن هابرماس *Jürgen Habermas* الحفاظ عليه، ولكن كما عرضه فوكو بوصفه الحقيقة على أنها خطاباً مهيمناً وآلية للحفاظ أو تغيير المعايير الاجتماعية، فالمسألة "ليست صراع باسم الحقيقة، بل مسألة صراع على حالة الحقيقة والدور الاقتصادي والاجتماعي الذي تلعبه". لذلك إن تأسيس نظام للحقيقة يرتبط بعلاقة دائرية مع نظم السلطة التي تنتجه وتحافظ عليه، فالحقيقة والسلطة مرتبطان بشكل أو بآخر ويعملان لدعم بعضهما البعض (Foucault, 1980:131-132). ويلتقي هذ المنطق في النهاية مع مقاربة بيير بورديو *Pierre Bourdieu* الذي يرى أن "القوة والسلطة تصنعان الهوية". لذلك لم يكن إطلاقاً خيار الهوية حيادياً على المستوى السياسي بالنسبة للحكومات والأنظمة التي تعاقبت على حكم سورية المعاصرة، فكان إما استجابة لسياسات ومطالب داخلية أو خارجية، أو لإضفاء الشرعية على النظام القائم حسب ما يرى جون ديفلن (Devlin, 1983: 1) ، فالهوية السياسية للدولة أصبحت مرجحاً في توازن القوى الإقليمي، فمن يجعل سورية تدور في فلكه أو من تتحالف معه يقود النظام الإقليمي في المنطقة.

في نهاية المطاف، يتضح أن تعدد خطابات الهوية وتنافسها بعد الاستقلال كانت على أرضية سياسية أكثر منها دينية، والخبرة التاريخية تنبئ أن السياسي هو الذي يوظف الديني والمستويات الأخرى لصراع الهويات. لذلك شكلت الهوية السياسية حيّزاً للصراع أهم بكثير من الهوية الدينية. لقد تجسدت رهانات الهوية صراعاً سياسياً داخلياً، وُسِمَ بتجاذبات البيئة الدولية والإقليمية وما أفرزته من قيود وفرص تحت تأثير مناخ الاستقطاب بين الشرق والغرب، وصراعات النفط، وحروب الحدود والوجود مع «اسرائيل».

ثانياً: العروبة

هيمن خطاب الهوية القومية العربية على الثقافة السياسية السورية بهدف تجاوز الهوية الفسيفسائية للمجتمع، وتم تكريس الانتماء للأمة العربية كانتماء فوقي في دوائر الانتماء المتعددة يعلو الانتماء للوطنية السورية. في الواقع، لعب الانفصال القسري بين سورية والدول المشرقية دوراً أساسياً في تعريف الهوية السورية والتعرّف بها لا سيما أن الاستعمار هو من صنع هذه الدول وفصلها عن سورية بعد الحرب العالمية الأولى بعد إن كانت ولايات إدارية في عهد السلطنة العثمانية. كتب مايكل فان دوسن *Michael Van Dusen* حول أثر سيولة الحدود وتغيرها وتعدد الولاءات ما دون الوطنية في تأخير تبلور هوية وطنية سورية لمصلحة بروز الهوية القومية العربية حينما ذكر:

"إن التقطيع المتواصل لسورية منذ أوائل القرن العشرين قوض تطور أي ولاء قوي متماسك اتجاه الدولة–الأمة السورية. وتبدو آثار تغييرات الحدود على الاندماج الوطني واضحة على مستويين: الأول بقيت الحدود محترمة تقنياً وأصبحت الهوية العربية أقوى من الهوية السورية. على المستوى الثاني: انعدام وجود أرضية لولاء وسطي. هذا يعني أن

الصراعات السياسية المحلية ستنعكس لاحقاً على المستوى السياسي الوطني وبالتالي هيمنتها على السياسات الوطنية"(Van Dusen, 1972:125-126).

لقد جعل التقطيع المتواصل للجغرافية سورية ضحية الاستعمار الغربي، وعزز فكرة الوحدة العربية كرفض للتجزئة المصطنعة على أيدي المثقفين القوميين العرب، لقد أضحت سورية ترى نفسها وينظر إليها كـ" قلب العروبة النابض"، لقد قيدت هذه الصورة الذهنية جميع الحكومات التي تعاقبت على الحكم بعد الاستقلال بغض النظر عن اتجاهها السياسي، لذلك تكرست العروبة في عهد الحكومات البعثية كهوية رسمية للدولة بعد أن تم "تأميم الهويات" في البلاد بحيث لا يمكن لأي هوية أن تعبر عن نفسها في الفضاء العام خارج المعايير والمنظور السابق. بهذا الإطار، ترى مارثا كيسلر *Martha Kessler* أن الأفكار العروبية لعبت كقوة جاذبة ساهمت في تحقيق التماسك والاستقرار في سورية ولكنها أعاقت تطور هوية وطنية سورية مستقلة (Kessler, 1987:16).

بذات المساق، تمثّلت آثار الخطاب العروبي المادية الملموسة المباشرة في دفع السوريين في عملية هروب للأمام ليتصرفوا ويتمثّلوا الخطاب القومي في الفضاء العام كأنهم يعيشون في المستقبل "الوحدوي للأمة العربية". خير من يعبر عن هذه المفارقة قول نجيب محفوظ، في حديثه عن العرب والعروبة:

"طبيعي أن يكون للأمة واقع وحلم، وطبيعي أن تسعى إلى تحويل الحلم إلى واقع،... أما غير الطبيعي فهو أن تعمل بوحي من الحلم كأنه واقع أو أن تتجاهل الواقع الحقيقي" (محفوظ، 1996: 15).

وفي حين هدف الخطاب العروبي إزالة العوائق بين مختلف الحساسيات السورية لكنه على العكس أنتج حواجز نفسية ورمزية من جهة، بين التكاوين المجتمعية المحلية بسبب التنوع الإثني بالإضافة إلى عدم تطابقه مع الفضاء الوطني السوري، ومن جهة أخرى خلق المتاعب مع المجتمعات العربية خارج الحدود حيث أنه أراد تكريس خطاب ما يجب أن يكون، مما أفرز صراع وتنافس عربي-عربي أكثر منه تضامن وتعاون. لقد حملت سورية أفكاراً كبيرة تفوق طاقتها وندبت نفسها لتلعب دوراً رسولياً نبيلاً أكبر من قدراتها الذاتية الملموسة فتبدّى بالنسبة للآخرين تداخلاً وتدخلاً في شؤونهم. بلاشك أن سورية لها قدرات غير ملموسة تشع خارج حدودها فهي "قلب العروبة النابض" ولكن هذا القلب مقطوع عن الجسد، لذلك مثّلت الدول العربية مجتمعة "أخيل القوي الأسطوري" والعروبة مثل "درع أخيل"، الدرع الذي أعاره أخيل لصديقه العزيز بارتوكلوس حتى يعتقد الطرواديين إنه أخيل القوي فيهابوه ولكنه قتل في أول مواجهة، وهنا تكمن المعضلة السورية بين الضعف والقوة بين قوة الأفكار وضعف القدرات المادية الذاتية.

واستكمالاً لهذا المشهد، عمل الخطاب السياسي العروبي على تغليف الموزاييك الاجتماعي لمنع استئساس طائفية سياسية على النمط اللبناني، لقد نظر الخطاب العروبي إلى الموروث العربي الإسلامي نظرة حضارية ثقافية وليس كشريعة أو إثنية وبهذا المنظور أصبح الجميع عرباً مسلمين بدءاً من المسيحيين ومروراً بغير العرب من الأرمن والشركس والتركمان... وانتهاءً بالأكراد. هذا "التغليف" للتعددية والاختلاف لم يؤد في النهاية إلى اختفاء الطائفية ولم يؤد إلى ازدهار المواطنة. ففي حقل التربية الاجتماعية عملت الدولة على نشر الإيديولوجية العربية والاشتراكية كخيار خلاصي والنظر للشعب السوري من عدسة القوميين العرب والاشتراكيين. أما في مناهج "التربية الإسلامية" تبنت "التعريف الارثوذكسي للإسلام" (عبد الرحمن، 2017c). بذات المساق، اعتبر النقاش في الفضاء العمومي حول الاختلاف والتنوع العرقي والطائفي في المجتمع جزءاً من النظريات الغربية المعادية التي تستهدف الوحدة الوطنية في كل بلد، أو بالأحرى اعتبِر جزءاً لما يسمى "نظرية المؤامرة" في الثقافة السياسية العربية، حيث أن الاعتراف بهذا

الموزاييك الثقافي والديني حسب هذه النظرية يهدف لتفكيك المجتمع وتمكين القوى الغربية للتدخل في هذه الدول. لذلك نظرت هذه الثقافة إلى المجتمع السوري ككتلة صماء واحدة ذات لون واحد وأي مجاهرة بالاختلاف قد يهدد الوحدة الوطنية.

لكن للمفارقة يرى بعض باحثي الشرق الأوسط أن الشعب السوري طور خصوصيته وشخصية سورية متمايزة عن الأيديولوجية العربية الرسمية على خلاف إرادة النخبة السياسية وسعيها لتكريس الهوية العربية للدولة السورية منذ الاستقلال، كما أشار إلى ذلك يحيى ساودسكي (Sadowski, 2002). وترى إليزابيث بيكار *Elizabeth Picard* "أن الشعب السوري أدرك أنه دفع الثمن غالياً لقاء إيديولوجية تحقيق حلم الوحدة العربية والدفاع عن القضايا العربية، سواء على المستوى الاقتصادي أو العسكري أو الأخلاقي دون فائدة تذكر". وبالرغم من أنه لم يستطع التحرر من الدوران في فلك العالم البلاغي الإنشائي للخطاب القومي الحالم بالأمة العربية. لكن فعلياً، "أصبحت الناس منشغلة أكثر بالعمل على تحسين أوضاعها الداخلية ولم تعد تملك ذات العنفوان والرومنسية الثورية في تغيير الوضع الراهن العربي وتحقيق حلم الوحدة العربية" (Picard, 1991: 73). وعاد السوريون لتداول "نظرية الأصفار" للمفكر محمد جابر الأنصاري: "الأصفار لا تتحول إلى عدد صحيح" فقط الأعداد الصحيحة تنتج عدداً أكبر منها" في إشارة إلى أن الوحدة تمر عبر تنمية وإنضاج الدولة الوطنية/القطرية وليس تهميشها. وبعضهم أصبح يرى أن الدول العربية أصبحت بعد الاستقلال تحت الصفر، حسب ما تقول نظرية "الصفر الاستعماري" للشيوعي المعارض رياض الترك رئيس حزب الشعب السوري الديمقراطي، وفيها يعتبر أن العراق بعد الاحتلال الأمريكي صعد إلى درجة الصفر.

ثالثاً: الاسلام

شجّع تراجع المشروع العروبي التوجه بشكل ملحوظ باتجاه الإسلام السياسي، أو باتجاه الهويات التفكيكية ما دون وطنية، ودفع للانجذاب بشكل جزئي نحو الهوية الوطنية "القطرية حسب الأدبيات القومية". ولعب التيار الإسلامي دون شك دوراً في الركود المعنوي والسياسي للعروبة كمشروع لتحقيق وحدة الأمة العربية ونهضتها وخلاصها من التبعية وتحرير أراضيها المحتلة رغم أن التيارين يتغنيان بذات الماضي المجيد ويطمحان لاسترجاعه و"الرسالة الخالدة" في شعار حزب البعث تناغمت في الممارسة التوفيقية مع رسالة الإسلام، ويشهد على ذلك الدور، التنافس والصراع المزمن في الوطن العربي بين التيار الإسلامي والتيار العروبي الذي يحمل العلمانية ذات الروح الإسلامية بين ثناياه، وبين اليسار والإخوان المسلمين في سورية بصفة خاصة، وفي هذا السياق، وظّفت ملايين الدولارات لزعزعة استقرار سورية منذ الخمسينات وفي الفترة التي واكبت توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ومع بداية الثمانينات عبر حزب الإخوان المسلمين وأعيدت المحاولة مع ما سمي "الربيع العربي".

بعد هزيمة الإخوان المسلمين في الثمانينات، اقتضت ضرورات حفظ أمن الدولة واستمرار الاستقرار بتعزيز التفاهم مع رجال الدين التقليديين في رفض الإسلام السياسي العنيف والمتطرف والسماح بانتشار نموذج من الإسلام المعتدل أو ما يدعى "الإسلام الرسمي الدولوي" غير المسيّس في مواجهة الإسلام السياسي المتطرف الذي يضم مريدي وممثلي الإسلام التقليدي الذين لم يتدخلوا في السياسة وعمليات التسييس منهم الصوفيون والمشايخ التقليديون. وبالمقابل حصلوا على دعم الدولة في مجال التعليم والثقافة والقانون والتشريع بالإضافة إلى المكاسب الاجتماعية مما خلق حاضنة اجتماعية كبرى للتدين وبالتالي أسلمة المجتمع من الأسفل (عبدالرحمن، 2018a).

ويمكن القول إن علمانية البعث التوفيقية حسب صيغة ميشيل عفلق: "جسد عروبي بروح إسلامية" استهدفت الوصول إلى نقطة توازن ما بين البعثيين العلمانيين ورجال الدين، أو ما بين الدولة والدين ، ولكن انتهت باختلال التوازن لصالح

رجال الدين بإعادة أسلمة المجتمع من الأسفل تحت راية دعم الإسلام المعتدل(عبدالرحمن، 2017b)[13]. لقد أنتجت العلمانية البعثية التي استهدفت ما يمكن أن نسميه "تأميم الإسلام" أي عملية دولنة المؤسسات الدينية لضبط أداء الوظيفة الدينية في المجتمع، "إسلاماً محافظاً" (Roy, 2002)، مما أدى إلى وصاية رجال الدين على المجتمع بدلاً من تحقيق استقلال المجتمع عنهم، وعملت في نهاية المطاف كديناميةٍ مقيدة للعلمانية، وخاصةً مع ضعف القوى العلمانية المنافسة، سواءً القومية منها أو اليسارية. لأن العلمانية البعثية لم تستهدف علمنة التشريعات والقوانين التي بالضرورة كانت ستفضي إلى تغيير ثقافي اجتماعي وتحرر الذهنية السورية المركبة للأفراد من القيود العقائدية والثقافية الموروثة. بالرغم من محاولتها علمنة المجتمع السوري وجعل الإيديولوجية العلمانية كهوية مشتركة يجتمع حول مبادئها وأفكارها مختلف أطياف المجتمع.

ولكن بالنظر للخبرة التاريخية منذ حوادث الثمانينات وصولاً إلى أزمة عام 2011. أنه لا تملك أية مجموعة أهلية في سورية مهما عظم حجمها احتكار تعريف سورية دستورياً وسياسياً، لذلك لا بد من مشاركة جميع التكاوين الأهلية بغض النظر عن كتلتها العددية والنسبية في تعريف وطنها النهائي بدلالة حدوده الدولية بدون أن يكون التعريف استبعادياً لأي من الحساسيات الإثنية والدينية. وضرورة ذوبان جميع التكاوين في بوتقة واحدة تتمايز بهوية وطنية بعيداً عن الأوهام التاريخية، هوية تمثّل الجميع وتجمعهم ولا تفرقهم ترتكز على دستور يعطي المواطنة الكاملة للفرد. وقانون أحوال شخصية مدني، وكتاب تربية دينية للجميع أو كتاب أخلاق.

المطلب الثالث: الديناميكيات المؤسِسة للهوية الوطنية: أولوية المصالح العليا للدولة *Raison d'état*

نجادل فيما سيأتي أن الانتماء للوطن ومفهوم الوطنية له أبعاد أعمق من الجغرافية وأبعد من الاختلاف مع الآخر ثقافياً أو سياسياً سواء العدو أو الصديق. حتى أن الانتماء الوطني الذي برز إثر الثورات الوطنية السورية في بداية العهد الفيصلي ضد الاستعمار ظهر في حين لم تكن قد رسمت بعد حدود سورية الحالية، ومن ثم فإن "الكتلة الحَدَثيّة *bloc Le événementiel*"(Méouchy, 2007 : 302) الناجمة عن مواجهة الاستعمار الفرنسي (1918–1927) خلقت هذا الاتجاه في مدارك السوريين منذ ذلك التاريخ .

وبالرغم من تعدد خطابات الهوية للنخب السورية وبروز الهوية الإسلامية تبنت الحكومات منذ الاستقلال الهوية العربية عبر السياسات العامة والمدارس والجامعات والإعلام... ولكن بالمقابل لم يقف ذلك عائقاً أمام تبلور خصوصية سورية متمايزة عبر التفاعلات الموضوعية على المستوى الشعبي خلال ما يقارب القرن من إنشاء الدولة السوري. نناقش فيما يلي ثلاث ديناميكيات كرّست هذه الصميمية الوطنية والتي يمكن أن نضيف إليها مستقبلاً: تداعيات أزمة عام 2011 كـ"أسطورة مؤسِسة" لإعادة إنتاج "الخطاب المختبئ" و"الغير مفكر به" من قبل النخبة حول قيام سورية جديدة في نظرتها لنفسها وللعالم من حولها.

أولاً: استئساس شبكة تفاهمات تداخلية وطنية

استمرت "ثورة البعث من الأعلى" حسب تعبير ريموند هنيبوش *Raymond Hinnebusch* مع وصول الرئيس حافظ الأسد إلى السلطة حيث سعى لتوطيد تماسك الكيان السوري وترسيخ استقراره عبر سبك شبكة من التفاهمات التداخلية *Overlapping Consensus* حسب تعبير جون رولز (Rawls, 1990). وعلى ضوء ذلك، عمل ما بعد السبعينات لاستنهاض "اللحظة الامبراطورية الأموية لدمشق" كرأس مال رمزي، راسماً دوراً لسورية يفوق قدراتها الذاتية الملموسة إقليمياً ودولياً، حيث استطاع بشكل متزامن تعظيم الإمكانيات السورية عبر انتزاع الموارد كالسلاح وأموال

[13] **نقارب الإسلام في هذا البحث بصفته إيديولوجية سياسية وليس كدين وعقيدة للمجتمع.**

النفط والدعم الدبلوماسي من النظام الدولي والإقليمي، وذلك عبر تحالفاته مع الدول والمنظمات والأحزاب خارج الحدود. كذلك عمل على إنشاء جيش عابر للطبقات والطوائف وتطهيره من التدخل في السياسة ليكون العمود الفقري في بناء السلطة والدولة وحارسهما السياسي، وللمفارقة تم تسييسه بمعنى جعله "عقائدياً" ينتمي لإيديولوجية حزب البعث، وبذلك أضحت الشروط البعثية هي المدخل لولوج جميع القوى الاجتماعية إلى السياسة بما فيها الجيش. كان للجيش دوراً مركزياً في بناء الدولة وتكوين المجتمع في "تشكيلة وطنية" (Abdel-Malek *et al.*,1975) تلتف حول مركز للسلطة. فالجيش حمى الحدود ووحد التكاوين الأهلية التي تؤلف الكيان الوطني حول القطب المركزي في السلطة وأصبح سيفها ودرعها، وشكّل جزءاً لا يتجزأ من البنية الاقتصادية والاجتماعية، وعنصر من مكونات الحركة الوطنية بحيث وقف في النقطة المركزية لعملية تشكل متحد سياسي وطني.

صاغت الحكومات، بالارتكاز على الجيش، سياسات ساهمت في عملية التجانس الوطني، وأفضت إلى بناء متحد/جماعة سياسية وطنية *Political Community* بسيميائية عروبية بعد أن اكتمل إنهاء النظام القديم *l'ancien régime* أو ما يسميه ألبرت حوراني "سياسات الوجهاء/الأعيان *The Politics of Notables*" (Hourni et *al.* 1993). إن بداية عملية التحوّل من سياسة الأعيان إلى سياسة الجماهير التي دشنتها الثورات الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي كانت لحظة استئساس للهوية الوطنية السورية الحديثة، من هوية بذاتها لها وجود موضوعي/مادي ملموس وجدت مع إنشاء الكيان الدولتي، إلى هوية لذاتها يعي أفرادها الانتماء إليها.

تزامنت اللحظة المؤسِسة للهوية مع نشوء الدولة كمؤسسة آنذاك، وللمفارقة تفاعلت وتطورت خارج إطار الدولة وبالتضاد معها حيث أنه لم يكن هناك فرق بالنسبة للسوريين بين مؤسسات الدولة قبل وبعد أفول العثمانيين. واستمر هذا التشكيك والارتياب حيال الدولة كون سلطة الانتداب الفرنسي كانت الممر بين النخبة المحلية المنتخبة ومؤسسة الدولة، وهذه النخبة كانت خاضعة بشكل مباشر للمندوب السامي الفرنسي وتحددت سلطتها بلعب دور الوسيط بين سلطة الانتداب والمجتمع المحلي. إلا أن هذا النظام بدأ بالأفول بعيد الاستقلال وتلاشت نخبته مع استلام البعث السلطة وصعود الرئيس حافظ الأسد. فأصبحت الدولة بمفهومها الويستفالي أبرز ما يمايز الهوية الوطنية السورية المعاصرة. لقد ساهمت عملية إعادة توزيع الثروة والسلطة في تحلل العمود الفقري للنخبة السياسية-البرجوازية التقليدية، وبروز نخبة عسكرية-سياسية متحالفة مع البرجوازية الجديدة مما خلق نمط من التفاهم التعايشي *Modus Vivendi* حسب توصيف ريموند هنيبوش (Hinnebusch, 1994). والتف هذا التحالف النخبوي حول الرئيس الأسد باعتباره القابض على التوازن بين أصحاب المصالح والقوى الاجتماعية الفاعلة. فقد اتبع سياسات عامة تستهدف جميع الفئات المجتمعية دون تمييز. وبهذا الصدد، يرى ديفيد ولدينر (Waldner, 1999:75) أنه لا يوجد أسباب تدفع للاعتقاد أن المواقف والسلوك تجاه علاقات الدولة بالاقتصاد والسياسات العامة ترتبط بالاختلافات الدينية والإثنية. وفي ذات سياق طريقة عمل الرئيس الأسد *Modus Operandi*، اتُبِعت سياسات عامة تراعي مصالح التكوينات العرقية، والدينية، والقبائل، والعشائر في البادية السورية، والأكراد في الشمال السوري (وهذا ما منع بدوره ظهور ما يسمى بـ"المسألة الكردية" خلال عهده) (عبدالرحمن، 2017a)، ولذلك برز الرئيس الأسد عبر هذه السياسات، كقائد مانع للتذرر السياسي والوطني، أو بحسب مصطلحات الخطاب البعثي "صمام أمان" مقابل معارضة هشة، وبالتالي تم بناء عصبية عابرة للطوائف والاثنيات يتمحور حولها المتحد السياسي الوطني. وبلا شك، إن ثباتها في أزمة عام 2011 يدل على قدرتها على التجدد والتكيف وبالتالي يمكن استشراف أن دورة حياتها وتفككها يقتضي حسب ابن خلدون أربعة أجيال على خلاف نبوءة فؤاد عجمي (Ajami, 2012) الذي رأى أنها ستزول في هذا الجيل. ولنا مثلاً في حكم محمد علي

الألباني لمصر فقد استمر حوالي قرن ونصف (1805–1952) بالرغم من تحالف الدول الغربية ضد إنشائه دولة إقليمية كبرى.

ثانياً: جدل "الأنا" و"الآخر" والتمثّل الهوياتي في السياسات العليا والدنيا

تتعين الهوية الوطنية جزئياً بدلالة "الآخر" العدو والصديق لأسباب تاريخية وجغرافية أو إدراكية، فالاختلاف حسب بيكو باريك *Bhikhu Barekh* هو شيء فرعي وليس سمة التعريف المحورية للهوية، ولكن يوجد اهتمام ثابت واستحواذي للحفاظ على الاختلاف مع الآخرين خشية أن يفقد الفرد هويته، فالتشابه مع الآخرين يوصف بأنه تهديد وجودي، ولكن بذات الوقت إن تعريف الجماعة هويتها على أساس الاختلاف فإنه يؤدي إلى ضرر بالذات لأن الآخرين يصبحون إطارها المرجعي، مما يدعو إلى التركيز على الاختلاف مع الآخر والتمايز عنه وهذا يؤدي إلى نهايات غير عقلانية والتنافر وإعاقة التبادل الثقافي (Barekh, 2008).

لقد تعينت الهوية الوطنية السورية بشكل أو بآخر بدلالة هويات دول الجوار الجغرافي بتنوعاتها الإثنية والدينية (العربية، التركية، الفارسية، الإسلامية، المسيحية واليهودية) ولاسيما لبنان و"اسرائيل" والعراق وتركيا وإيران... وذلك من خلال التفاعلات التعاونية أو الصراعية، لأن الهوية حسب المقاربة البنائية *Constructiviste* ليست إلا بناء اجتماعي. ضمن هذا المنظور، تتمتع الدول بهوية مؤسسية تولد أهدافها الرئيسة كالأمن المادي والتنمية الاقتصادية والاستقرار والاعتراف من جانب الآخرين. ومع ذلك، تعتمد الطريقةُ التي تحقق عبرها الدول أهدافها على هوياتها الاجتماعية؛ أي كيف تنظر الدول إلى نفسها مقابل الدول الأخرى في المجتمع الدولي بصفة عامة وفي النظام الإقليمي الذي تنتمي إليه بصفة خاصة، إذ تقوم الدول ببناء مصالحها الوطنية على أساس هذه الهويات (Barnett, 1996).

إلا أن الهويات المتعددة داخل الدولة والهويات العابرة للحدود الوطنية تنافس هوية الدولة وتحدد بشكل أو بآخر سلوك الدولة المركزية في أن يكون صراعياً أو تعاونياً، وبالتالي تحدد معاير التمييز بين العدو والصديق. هذا السلوك يعود ليسم الهوية بالتغذية الراجعة. لذلك تبرز العلاقة العضوية بين الهوية والمصلحة الوطنية وبالتالي العلاقة بين الهوية والسياسة الخارجية من خلال دور التأثيرات المحلية في السياسة الخارجية (Bar–Siman–Tov, 1993)، ويمكن تأطير ذلك في العلاقة بين السياسات الدنيا *Low Politics* والسياسات العليا *High Politics* . فالبنائية تحاول بناء علاقة بشكل مفاهيمي بين مستوى النظام الدولي والمستوى الدولتي وتعطي ذات الأهمية للمستوى المحلي والمستوى الدولي النظمي بالتوازي مع أهمية المعايير *normes* والايديولوجيا/الهويات (Telhami & Barnett, 2002).

يتفق البنائيون على أن العلاقات الدولية هي محصلة تفاعلات نظامية داخل وحول الدولة، والفوضى *Anarchy* هي ميزة النظام الدولي، لكنهم يقولون إنها لا تعني شيئاً في ذاتها. بهذا السياق، يجادل ألكسندر واندت *Wendt* بأن الدولة بناء اجتماعي، فالدولة والبنية (بنية النظام الدولي) يصيغ ويشكل أحدهما الآخر نتيجة شبكة التفاهمات التذاتانية بين الأفراد، أو كما يقدمها: "الفوضى *Anarchy* كما تُصنع منها أو تفهمها الدول" (Wendt, 1992). وبناء عليه، تختلف ثقافة الفوضى الناجمة عن الأصدقاء اختلافاً كبيراً عن تلك الناجمة عن الأعداء، ولكنّ الاثنتين ممكنتان. وبالتالي يمكن تنوع البنى الاجتماعية في ظل الفوضى (Wendt, 1999). ومن المهم الإدراك أيضاً أنه قد يكون للدولة هويات اجتماعية عدة، فقد تكون تعاونية أو تنازعية، وأن مصالحها تتنوع وفقاً لهذه الهويات. ومن ثم تحدد الدول مصالحها في سياق تأويلها للأوضاع الاجتماعية التي تمثل جزءاً منها.

وعلى ضوء هذه المقاربة، بإمكاننا القول إن علاقة الحرب الباردة التي نشأت بين سورية والعراق في ظل صدام حسين والتنافس البعثي–البعثي كانت بنية اجتماعية، حيث عَدّ كل منهما الطرف الآخر عدواً له، وحدد مصالحه الوطنية وفقاً

لمعايير عدائية، حيث أن العراق وقع في فخ استراتيجية الاحتواء الأميركية التي حيّدت أقوى جيوش المنطقة المعادية ل»اسرائيل». لذلك تحالفت سورية مع إيران في حرب الخليج الأولى. أي أن الهوية السورية هي التي صاغت وعرّفت المصالح الحيوية السورية وليس مقاربة النزاع من ناحية فارسية إيران وعروبة العراق. لكن في نهاية التسعينات، عندما توقف البلدان عن النظر كل منهما إلى الآخر وفقاً لهذه المعايير، انتهت الحرب الباردة بينهما واتجهت علاقات البلدين باتجاه الانفراج والتقارب وتبادل المنافع الاقتصادية.

كذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والانفتاح السوري الليبرالي الاقتصادي نحو الغرب تم تجاوز معيار *Norme* العداء للإمبريالية الثابت في الثقافة السياسية السورية منذ عقود بمهادنة Bangwagn الولايات المتحدة الأميركية "الإمبريالية" من أجل تحرير الكويت في حرب الخليج الثانية. إن تغير التوازنات الدولية وأفول الحليف السوفييتي الذي كانت سورية توازن به Balancing التهديدات الأميركية والاسرائيلية يشرح اتجاه سورية نحو الليبرالية الاقتصادية وإعادة تعريفها لمصالحها الحيوية بالاقتصاد الذي كان له الأولوية في تحديد سلوك سياستها الخارجية حيال الولايات المتحدة الأميركية، وهذا يعني التغير في إدراك مصالحها وهويتها السياسية وتغير نظرتها لنفسها وللعالم، وضمن هذا الإدراك تمَّ قبول الدخول في مفاوضات السلام مع العدو الاسرائيلي. وفي النتيجة هذا يعني أن تحولات إدراك صورة الدولة لدى الأخرى أي تحولها من عدوة إلى منافسة إلى صديقة يؤدي بالتالي إلى تغيير سياستها الخارجية من سياسة احترابية إلى سياسة تعاونية أو بنائية وبالنتيجة تغير هويتها السياسية–الوطنية.

وهذا يعني في النهاية إن إدراك السوريين لذاتهم الوطنية هو الثابت وإن كانت تتعرف بدلالة الآخر أو وجود عدو ما، لأن إدراك صورة العدو متغيرة في العلاقات الدولية حسب المصالح وحسب الزمان والمكان، وبالتالي الانتماء للوطن ومفهوم الوطنية له أبعاد أعمق من الجغرافية والجوار الجغرافي العدو أو الصديق. حتى أن الانتماء الوطني الذي برز إثر الثورات الوطنية السورية في بداية العهد الفيصلي ضد الاستعمار الفرنسي ظهر في حين لم تكن قد رسمت بعد حدود سورية الحالية، ولم تكن محددة أيضاً في الدستور الذي صدر في 4 تموز 1920، الأمر الذي يحيلنا إلى أن العوامل الإدراكية والتفاعلات والتفاهمات التذاتانية الاجتماعية لها الأولوية في تحديد الهوية الوطنية لأنها الأبقى والأبرز.

أيضاً، خلال الحرب الأهلية اللبنانية عام 1976 تم تقديم الدعم السياسي والعسكري للبنانيين (المسيحيين) ضد منظمة التحرير الفلسطينية والمسلمين الراديكاليين، حيث تم تعريف ما هو "عقلاني" للمصالح السورية نتيجة تغير إدراك صانع القرار السوري للتهديد والخطر بناءاً على المصلحة العليا للدولة السورية *Raison d'état* حيث أن سورية دعمت الأطراف التي تؤمن بوحدة التراب اللبناني ولا تقبل أن يكون لبنان مقراً أو ممراً لمعارضة السياسات السورية. إذاً، ليست الإيديولوجية بل الهوية الوطنية السورية هي التي حددت ما هو عقلاني للمصلحة السورية والعكس صحيح.

في نهاية المطاف، رسخّت وعرّفت السياسات الخارجية الوطنية السورية البلاد كـ"وطن نهائي" بالرغم من الخطاب القومي العروبي العابر للحدود، وساهمت في ترسيخ الخصوصية الوطنية السورية. في الواقع، بالرغم من أن الخطاب العروبي كان الفضاء المرجعي للسياسات السورية إلا أن الفضاء الشامي كان مجالها الحيوي والوظيفي، بل تتكثف في هذا المجال وتتقاطع دوائر الصراع والتنافس في المنطقة: العربية–الاسرائيلية والعربية–الإيرانية والعربية–التركية.

ثالثاً: إدراك العدو الخارجي: الصراع الممتد مع «اسرائيل»

لقد شكل الصراع الممتد مع «اسرائيل» على مدى أكثر من نصف قرن العامل الأساسي الذي وسم هوية المواطن السوري، فالسوري يهمل هويته ما دون–الوطنية (العائلة، القبيلة، الطائفة، القرية، المنطقة) في لحظة الحرب مع «اسرائيل» ويتصرف كسوري. ففي الثقافة الإستراتيجية السورية: «اسرائيل» هي العدو وهي التهديد الأول للسوريين،

لاسيما أنها خاضت أربع حروب ضد سورية (1948، 1967، 1973، 1982) قتلت فيها آلاف السوريين واحتلت ولا تزال تحتل أجزاء من الأرض السورية (هضبة الجولان)، فالعدو الاسرائيلي هو عامل أساسي في وحدة وتماسك الدولة السورية وعامل جوهري في إدراك السوريين لهويتهم حسب مفهوم "العدو" لدى كارل شميت. يرى شميت أنه في مواجهة تهديدات العدو بالدمار والموت نصبح "نحن" كاملي الإدراك "من نحن" وما هو "عقلاني" تماماً بالنسبة لنا (Schmitt, 2007). حول هذه النقطة لا يزال يصح ما ناقشه يحيى ساودسكي (Sadowski, 2002: 137) وعبّر عنه دريسدال في منتصف السبعينات (Drysdale, 1975: 6):

"إنه من الممكن أن يتصرف الضابط السوري في مطعم كضابط إذا كان يشعر أنه سيحصل على خدمة أسرع، ... ومن الممكن أن يتصرف كريفي ... (يعيش في الأطراف) غير مديني أو بعثي أو[كل ذلك] أثناء انقلاب عسكري، ومن الممكن أن يتصرف كاشتراكي أثناء وضع السياسات الاقتصادية، ولكن يتصرف كسوري أثناء الحرب مع «اسرائيل»".

هذا يدعونا للاستنتاج بشكلٍ أو بآخر، أن الهوية "بناء اجتماعي" وحسب المناخ الاجتماعي. أن خصوصية الأمة هي عنصر أساسي في هويتها، وتتحدد وتتعرف في مواجهة خطر تهديد أمة أخرى، لكنها كخصوصية عامة قد لا تكون مرئية أحياناً في نشاط الحياة اليومية بسبب تعدد الهويات التي يحملها الفرد ولكن تبرز مباشرة عندما يكون هناك خطر أو تهديد خارجي ويختارها بين الهويات التي ترعرع عليها.

غير أنه مع "مذهبة وتطييف" الأزمة السورية لعام 2011 بدأت عملية انزياح مدارك التهديد من دائرة الصراع العربي – الاسرائيلي إلى دائرة الصراع العربي–الإيراني على المستوى العربي مع بروز تحالفات "مضمرة" بين بعض الدول العربية و"اسرائيل" ضد إيران و"حلف الممانعة" بصفة عامة. وبشكل لا يخلو من التناغم مع تبدل المدارك الإقليمية لمصادر التهديد، حيث لجأت المعارضة المسلحة المتواجدة على حدود الجولان للعلاج في مشافي «اسرائيل» ولا ترى عدوها إلا في دمشق وطهران. لقد تغيرت صورة العدو في مدارك معظم المعارضة السورية التي ترى إيران عدواً على خلاف إدراكات النخبة الحاكمة التي طالما كان تحالفها مع إيران بعداً ثابتاً في ثقافتها السياسية–الاستراتيجية بالارتكاز على العداء المشترك لإسرائيل وأن "عدو عدوي صديقي".

وبالتالي الاختلاف حول تعريف العدو ومصادر التهديد يعيد تعريف الهوية الوطنية وفق منطق مصالح الدولة *Raison d'état* التي تهدف إلى البقاء بغض النظر عن مسألة الأخلاق والعدالة، وهذا يخلق انقساماً على المستوى الوطني، ويجدد صراع الهويات لأن الأطراف قد تلجأ إلى الهويات ما دون الوطنية وتلك العابرة للوطنية لتعظيم قوتها. وعليه يغدو الاتفاق بين النخب الحاكمة والمعارضة على تعريف الهوية السياسية للبلاد هو المدخل للسير بالبلاد نحو الاستقرار والوئام الوطني بعد أزمة الصيغة الثقافية الوطنية المشتركة *Cultural Topoi* إثر أزمة عام 2011 وتداعياتها.

الخاتمة

في مجتمع يحتوي "حساسيات/جماعات" عربية – مسلمة وأخرى إثنية أكبرها الأكراد، يستخلص هذا البحث أن الهويات ما دون الوطنية والهويات العابرة للحدود (العربية، الكردية، الإسلامية، الشامية/بلاد الشام) هي مكونات أساسية للهوية الوطنية السورية وهي جزء منها وليس العكس. فنحن أمام تداخل في غاية التعقيد أشبه بالتفاعلات الكيميائية، حيث ما أن تلتقي العناصر حتى تفقد خاصياتها الأولى ومن ثم تتحول لتشكل مركباً جديداً يحتوي خصائص العناصر المكونة ولكنه لا يتطابق مع أيٍّ منها، هذا المركب ليس إلا الهوية الوطنية السورية. ومن ثم فإن التدخل المستمر لإعادة إبراز خاصية وسيادتها على الخاصيات الأخرى، يولد تفاعلاً صراعياً واختلال في التوازن بين العناصر. لذلك لا بد من الانخراط في خطاب الوطنية السورية المتمركز حول المصلحة الوطنية *Raison d'état* لأنه يحتوي بين ثناياه المعنى

الحقيقي الصحيح للهوية السورية الذي يؤسس بدوره لروح وقيم إنسانية تحقق المساواة والعدالة والأخوة بين الجميع، والخبرة التاريخية السورية تُنبئ أن "رهانات المعنى" المسيّرة بـ"إرادة الهيمنة" لسيادة عنصر على آخر ستبقى متصارعة غير مستقرة عبر الزمان والمكان. وبالتالي لا سبيل إلا لهوية إنسانوية أساسها التطلع نحو المستقبل الممكن والواجب منفتحة على العالم الحديث والتوقف عن محاولات استعادة التاريخ الغابر بأثقاله ورواسبه بل النظر للتاريخ باعتباره "خياراً" وليس معطى نهائي.

بالمقابل لم يتبن هذا البحث مقاربة التخلي عن العروبة كجوهر للهوية الوطنية السورية ولكن يتفق مع عروبة بالمعنى الحضاري ما بعد –إيديولوجية أي غير عقائدية ولا تُختزل المواطنة بها، عروبة غير تدخلية أو استبعادية متصالحة مع محيطها كمشروع يرتكز على أسس سياسية واقتصادية تعبر عن المصالح المشتركة.. بهذا الصدد، يمكن أن نقول بأن العروبة في النهاية ليست مشكلة بما أنها لغة مشتركة بين الجميع وكما يقول النبي الكريم محمد: "العروبة باللسان"، فالعروبة ليست بالضرورة مرتبطة بالقومية بالمعنى العرقي، فالكردي مثلاً يمكن أن يكون عروبياً وكردياً في آنٍ واحد... وهذا يتفق مع التعريف البعثي الثقافي للعروبة ولكن لم تستطع الحكومات حقن هذا المفهوم في طباع الناس ليحل مكان تصوراتهم التقليدية الموروثة وبالتالي اختفاء عوارض وجود "أقليات" و"أكثريات" من مدارك السوريين وذلك ليس إلا بسبب أن المفهوم لم يتم مأسسته عبر بناء المواطنة الكاملة.

إن الجميع يمكن أن يؤمن بالمشروع العروبي اقتصادياً وسياسياً ويتكلم العربية ولكن على أساس العدالة والمساواة في الحقوق والمواطنة الكاملة وليس على حساب خصوصيته الثقافية أو انتماءه لوطنيته السورية. فالمواطنة الكاملة كهوية تشكل قدرة كامنة قادرة على نزع ذرائع الصراع على الهوية في المجتمع وإبطال القدرة على استثماره في الصراع على السلطة من قِبل الفواعل المحلية أو الخارجية، ومن ثم لا يغدو من السهل اختراق المجتمع، وهذا بالطبع سيشكل خسارة للدول المهيمنة في الإقليم.

إن نظريات رفض كل ما هو وطني/محلي لأنه مصطنع أو منتج استعماري ومؤقت وأنه لا يمكن بناء الوطني بدون القومي قد فشلت ولم تؤد إلا إلى مزيد من التأخر والتفكك وتعزيز الولاءات ما دون الوطنية وما فوق الوطنية في ظل كيانات سياسية يُنظر لها أنها ليست أوطان نهائية. فالبناء الوطني للهوية والدولة السورية هي اللبنة الأولى في البناء القومي على النمط الأوروبي. فعلى سبيل المثال، توحد الأوروبيون اقتصادياً وسياسياً بالرغم من التنوع القومي الكبير في أوروبا ودون أن يخسر الفرنسي والألماني هويته.

إن "سيولة الهوية الوطنية" مع صعود الأصولية السلفية ودخول الصيغة الوطنية المشتركة في حالة اللايقين مع أزمة عام 2011 يستدعي من النخب السورية العمل على التكيف مع "نهاية حقبة ما بعد الاستعمار *The End of Era Post-Colonialism*". لقد انتهت شروط إنتاج الايديولوجيات التي نشأت لمواجهة فترة ما بعد الاستعمار، فسورية الراهنة بحاجة للدخول في حقبة ما بعد الإيديولوجية حيث يذوب الصراع بين اليسار واليمين وبين العلمانيين والإسلاميين ويتفق الجميع على أرضية إعلاء قضايا حقوق الإنسان والحرية والمساواة والمواطنة الكاملة، ويتكوكب الجميع حول الهوية الوطنية السورية التي بلا شك ليست مشهد عابر، وإن كان لها جانباً مظلماً خفياً يكمن في صعوبة تحررها من الصراع في المدى المنظور، لكنها في الواقع والحقيقة هي المشهد الدائم وربما يكون الأبدي. بالنتيجة يشكل حالياً عنصري العروبة والإسلام بعدين أساسيين من الهوية الوطنية ولكنهما جزء والجزء لا يحتوي الكل ولو كان عابراً للقارات.

References:

Arabic:

−Al-Ansari, Muhammad Jaber. (1995), The Arab Political Formation and Significance of the Qatari State. Introduction to re-understanding the Arab reality, Beirut: Durrat Center for Arab Unity, 2nd floor.

Belqiziz, Abd al-Ilah. (2008). State and society. Controversies of unification and division in the contemporary Arab meeting. Beirut: The Arab Network for Research and Publishing.

-Khoury, Philip. (1993). Notables of Arab cities and nationalism. The Politics of Damascus 1860-1920, translated by Afif Al-Bizri, Beirut: Arab Research Foundation, 1st edition.

-Dagher, asead. (1991). The Great Arab Revolt 1917, Amman: Ministry of Culture, Heritage Revival Series, 2nd edition.

-Dahir, Masoud. (2001). Civil Society and the State in the Arab Mashreq, in (Intellectual Seminar) Civil Society in the Arab World and its Role in Achieving Democracy (pp. 413-397), Beirut: Center for Arab Unity Studies, 2nd edition.

Abdul Rahman, Hussam. (2019) The Crisis of the Arab-National State: Challenges of Traditional Political Heritage, Modernity and Modernity in the Post-Colonial Era, Refereed Research, "Believers Without Borders, Kingdom of Morocco.

(a2018). State and Syrian National Building: The Dialectic of the State and Identity Between Dismantling and Integration, a research presented and published in the National Identity Conference, Damascus Center for Research and Studies, Medad.

(b2018) Transitions of political Islam in Syria between politicization of religion and the militarization of politics, Faithful Without Borders Foundation, Kingdom of Morocco.

2017 a) "The Syrian Kurds' Dilemma between the Merger of Integration and the Myth of Separation," Arab Future Magazine: Center for Arab Unity Studies, No. 463, September.

B (2017) Syrian compromise secularism between Arabism and Islam, Damascus Center for Research and Studies, Medad.

(2017) National Identity in the Syrian School Curriculum: An Imaginary Controversy and Reality, Damascus Center for Research and Studies, Medad.

-Mahfouz, Naguib. (1996). On Arabs and Arabism, Cairo: The Egyptian Lebanese House, 1st Edition.

English:

Abdel-Malek, A. *et al*.(1975), *L'Armée dans la nation : Asie, Afrique, Amérique latine*, Alger: Société nationale d'édition et de diffusion. 439 p.

Anderson, B. (2006) *Imagined Communities. Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, London: New York: Verso, cop. Revised, 240 p.

Barnett, M. N., (1996) "Identity and Alliances in the Middle East", in Peter J. Katzenstein, (dir.), *The Culture of National Security: Norms and Identity in World Politics* (pp. 400-447). New York: Columbia University Press.

Bar-Siman-Tov, Y. (1983) *Linkage politics in The Middle East: Syria Between domestic and external conflict 1961-70,* Westview. 176 p.

Bull H. & Watson A. (1984). *The Expansion of International Society*, Oxford: Clarendon Press. 480 p.

Devlin, J. F. (1983) *Syria: Modern State in an Ancient Land*, Westview Press. 140 p.

Drysdale, A. D., (1975). "Ethnicity and the Syrian Officer Corps: Some Theoretical Perspectives", paper presented at the annual meeting of the *Middle East Studies Association* in Louisville, Nov. 28.

Geertz, C. (1973) *The Interpretation of Cultures: Selected Essays*, New York: Basic Books.470 p.
Hinnebusch, R. (1994) "Liberalization in Syria: The struggle of Economic and Political Rationalityin Eberhard Kienle (ed.) *Contemporary Syria, Liberalization Between Cold War and Cold Peace*" (pp. 97-113), London: British Academic Press.
"Sectarianism and Governance in Syria" in *Studies in Ethnicity and Nationalism*: Vol. 19, No. 1, 2019 (41-66 p.).
Hobsbawm, E. & Terence R. (eds.). (1983). *The Invention of Tradition*, London: Cambridge University Press.320 p.
Holsti K. J. (1992). *International Politics, A framework for Analysis*, New Jersey: Prentice-Hall, 6e ed. 419 p.
Hourani, A. (1993). "Ottoman Reform and the Politics of Nobles" in Albert Hourani, Philip Khoury & Mary C. Wilson (eds.), *The Modern Middle East*: A Reader (pp. 83-110), 2nd edition, London: I. B. & CO. Tauris.
Khalidi, R. Anderson, L. Muslih, M. Simon, R. S. (eds.), (1991). *The Origins of Arab Nationalism (Introduction)*, in Khalidi, Anderson *The Origins of Arab Nationalism*. (pp. VII-XIX), New York: Columbia University Press.
Kedar, M. (2005). *Assad in Search of Legitimacy: Message and Rhetoric in the Syrian Press under Hafiz and Bashar*, Brighton; Portland : Sussex Academic Press. 302 p.
Kessler, M. N. (1987). *Syria: Fragile Mosaic of Power*, National Defence University Press. 142 p.
Lawson F. H. (2006). *Constructing International Relations in the Arab World*, Stanford University Press, Stanford, California. 208 p.
Méouchy N., (2007). *Comment interroger les mobilisations sociales en tant qu'historien?*, in G.D. Khoury et N. Méouchy (dir.), *États et sociétés de l'Orient arabe en quête d'avenir, 1945-2005,* (pp. 293-320); *vol. II, Dynamiques et enjeux*, Geuthner, Paris.
Picard, É. (1991). « Critique de l'usage du concept d'ethnicité dans l'analyse des processus politiques dans le monde arabe », in J.C. Vatin & *al*., *Etudes politique du monde arabe. Approches globales et approches spécifique* (pp. 71-84), Dossier du CEDEJ, Fondation Nationale des Sciences Politiques, le Caire.
Pipes, D. (1992). Greater Syria:The History of an Ambition, Greater Syria: The History of an Ambition, New York: Oxford University Press. 240 p.
Roy**,** O. (2002). *L'islam mondialisé*, Paris, Editions du Seuil, Coll. « *Points* ». 209 p.
Sadowski, Y. (2002) "The Evolution of Political Identity in Syria", in Shibley Telhami & Michael Barnett (eds.), *Identity and Foreign Policy in the Middle East* (pp. 137-154) Ithaca & London: Cornell University press.
Schmitt, C. (2007). *The Concept of the Political: Expanded Edition*, Carl Trans. and with an Introduction by George Schwab , University of Chicago Press. 159 p.
Seale P. (1987). *The Struggle for Syria: A study of Post-War Arab Politics1945-1958*, I. B. Tauris & Co LTD. 352 p.
Smith, A. D., (1989) "*The Origins of Nations*", Ethnic and Racial Studies, Vol. 12. Issue 3. 340-367
Telhami, S. & Michael B. (dirs.). (2002). *Identity and Foreign Policy in The Middle East*, Ithaca & London: Cornell University press. 207 p.
Waldner, D. (1999). *State Building and Late Development*, Ithaca and London: Cornell University Press. 246 p.
Wendt, A. (1999). Social Theory of International Politics. New York: Cambridge University Press. 433 p.